

حلي الرأس للمرأة بمدينة الجزائر في العهد العثماني

د. حنفي عائشة

أستاذة محاضرة

معهد الآثار

جامعة الجزائر 2

كان لشساعة رقعة العالم العربي الإسلامي، أثر كبير في تنوع أشكال الحلي العربية الإسلامية. وبرغم هذا التنوع في الأنماط والتصاميم نجد أن هناك وحدة في الذوق العام بفعل تأثير العقيدة الإسلامية على الصانع المسلم، الذي شكلها وزينها بالعبارات الدينية والوحدات الزخرفية الإسلامية النباتية والهندسية، التي تتكرر في العديد من تصاميمها، فأفضى عليها طابعا فريدا، ميزها عن غيرها من حلي الشعوب الأخرى.

فطرت المرأة محبة للزينة وحب الظهور، ولقيمة الذهب في نظر العالم ولمكانته الممتازة آثرت أن يتخذ منه زينتها وحليها، فاختارت القرط زينة لأذنيها، والسوار حلية لمعصمها، والقلادة ليزدن بها جيدها، ومن الخواتيم طية لأصابعها، وما إلى ذلك من مستلزمات حلي المرأة وزينتها في كل المناسبات.

وقد وردت في دفاتر التراكات، أنواع مختلفة لأسماء المصاغ، وقد أحصيناها مرتبة حسب تواترها فوجدنا الصرمة مذكورة في 118 حالة، والمقفول في 72 حالة، والونائيس في 51 حالة، والمقاييس في 41 حالة، والمساييس في 27 حالة، والبزاييم في 17 حالة، والسلسلة في 16 حالة، والشركة في 13 حالة، والفرد والحسك في 10 حالات والخواتم والمناقش في 09 حالات، والقلادة والزروف والمصوغ في 04 حالات، والخلخال في ثلاث حالات والبرمة والمحبوب، وجعبة فضة، والجوهر والوقتية في حالة واحدة¹.

ذكرت دفاتر بيت المال أيضا، أنواعا عديدة من المصاغ، الذي عرفه مجتمع مدينة الجزائر، الذي لا شك في أن لمسة النساء كانت فيه بارزة جدا، وهو أمر منطقي باعتبار أن هذه الأخيرة كانت أكثر حرصا على اقتنائه* فوظفت أموالا معتبرة من أجل هذا الغرض، وقد كانت تستعمله في الحياة اليومية، خاصة

¹ - سعد الله (أبو القاسم)، "دفتر محكمة المدينة (الجزائر)، أواخر العهد العثماني (1821-1839)"، من الحياة الاقتصادية في الولايات العربية، جمع وتقديم عبد الجليل التميمي، منشورات مركز الدراسات والبحوث، زغوان، 1998، ص. 141.

* - يبدو من خلال قراءة الدفاتر، أن المصاغ كان من المقتنيات الهامة التي خصصت من أجل اقتنائه مبالغ هامة، فقد وجدنا على سبيل المثال في تركة العلجة المتوفاة سنة 1214م، صرمة تقدر بـ 834 ريال و مناقش بـ 265 ريال. وامرأة أخرى متوفاة سنة 1217هـ، تركت صرمة بـ 573 ريال، وشاشية ثمنها 229 ريال. يراجع: بيت المال، دفتر 4، 23-79.

في الحفلات الخاصة بالأعراس والإختتان، وقد ذكر "حمدان خوجة" كيف كانت العائلات ميسورة الحال، تشتري المصاغ وتخصصه فقط لتعيره للعائلات الفقيرة والمحرومة أثناء حفلات زفافها، وهذا تعبيراً عن الحرص والتضامن بين فئات المجتمع من جهة، وأهمية المصاغ في مثل هاته المناسبات.

من جهة أخرى، كما أثبتت دراسة عقود الزواج الصادرة من المحكمة الشرعية، وجود الصداق الذي يتضمن أنواعاً مختلفة من المصاغ².

إلى جانب وفرة المصاغ التي تضمنتها الوثائق العثمانية، والدفاتر المالية، يوجد هناك أنواع أخرى متعددة وذات تسميات مختلفة، وقد أسفرت حقيقة عن غنى المنطقة وهذا تأكيد آخر لاهتمام البالغ لشريحة النساء على جمعها وامتلاكها وهو ما بينته المبالغ الهامة المخصصة لهذا الجزء، وقد ذكر "باننتي" ذلك فقال: " كانت نساءهم مغطاة بالذهب والماس"¹.

والجدير بالذكر، خلو المرأة من أدوات الزينة أياً كانت طبقتها الاجتماعية ومستواها المادي، ذلك أن الحلي جزء لا يتجزأ من حياتها. وفي ضوء ما سبق القول، نجد أشكالاً عديدة ومختلفة من الحلي الجزائرية، فمنها ما يستخدم كحلية للرأس، واليدين، والأقدام ومن أمثلة هذه الحلي نذكرها حسب أهميتها:

I - حلي الرأس:

تنوعت حلي الرأس ومنها ما كان مستعملاً منذ العصر الجاهلي واستمر حتى العصور الإسلامية المختلفة ومنها ما لم يكن معروفاً إلا في العصرين الأموي والعباسي أو على الأقل ما استتبطناه من النصوص تشمل أشكالاً عديدة ومختلفة من حيث شكلها أو طريقة لبسها.

1 - الصرمة*:

تتكون الصرمة من جزئين متداخلين، يشكل الجزء الأول نصف مخروط ناقص ومجوف يشد على الجبين، وعلى الرأس بمناديل رقيقة أو عصابات. أما الجزء الثاني، فأصغر من الأول ووظيفته إحاطة الشعر. وقبل الوصول إلى الارتفاعات الرائعة ابتداء من القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي، كانت الصرمة تتشكل من سبيكة رقيقة من الذهب أو الفضة، مزخرفة بالتوريق العربي، ولكن مع الوقت، أصبحت هذه التقنية ذات وزن ثقيل يصعب حمله، فاستبدلت بنظام من الخيوط المعدنية

² - خوجة (بن عثمان حمدان)، المرأة، تقديم وتعريب وتحقيق محمد العربي زبيري، الجزائر، 1982، ص. 15.

¹ - PANANTI, Relation d'un séjour à Alger, contenant des observations sur l'état actuel de cette régence, Paris, 1880, p. 298.

* - ورد ذكرها في عقد زواج الحاج عثمان بن السيد علي من عزيزة بنت عبد الرحمن كاتب دار الإمارة على صداق قدره ألف دينار و أربعة أفراد وخمسة قناطير صوف وأربعة قفاطين اثنان منهما مذهب واثنان كمخة مع غليلتين اثنتين مع حزامين من الحرير مذهبين مع آمتين اثنتين مع وقتيتين جواهر مع صرمة مصوغة من الذهب. يراجع: BENCHENEB, Op. Cit., pp. 116-117.

ملصقة فيما بينها، ومتشابكة في شكل التوريق العربي طويلة داخل بنية أكثر سمكا من نفس المعدن، وهذه الخيوط المعدنية هي أصل الصرمة.



صورة 01: الصرمة.

محفوظة بالمتحف الوطني للآثار القديمة - الجزائر -

وكان هذا الاسم لا يزال مستعملا حتى بداية القرن العشرين من طرف فنانين سراجين تونسيين، وهذا للتفريق بين خيط الفضة المستعمل بكثرة الملفوف فوق خيط من الحرير، والصرمة أو خيط الفضة الصافي².

ووصل هذا الاسم إلى المغرب عن طريق المشاركة، وأصل الكلمة إغريقي-بيزنطي صيرمة « Syrma » بمعنى خيط معدني يستعمل في التخريم أو الطرز.

في تركيا العثمانية « Sirma » يعني خيط المعدن الرقيق، الذي يوضع على القماش بعد أن يلتوي في شكل الرقش، بينما صرمة تمثل غرزة بسيطة من الغرز التي كانت تستعمل في الطرز الذي يشبه غرزة السندس (Satin).

وكان اسم الصرمة يمثل، في كل من سوريا، وفلسطين في العهد العثماني، ثوب من المخمل مطرز بغرزة السندس مع خيط الذهب.

أما الفنانون المغاربة، فكانوا يصنعون هذا المعدن المنقوش أو المخرم، الذي تواصل عبر قرون طويلة، خاصة في صناعة المخروط الذهبي، أو الفضي، الذين كانا يستعملان في إثراء رأس الشاشيات المخروطية، الخاصة بالحفلات. وكانت هذه الإضافات المعدنية، ما تزال مستعملة في بداية القرن

² - BENFOUGHAL (T), Les costumes féminin de Tunisie, Alger, collection du Musée du Bardo d'Alger, 1983, p. 20.

العشرين في تلمسان، وقسنطينة، حيث تكون شاشية العروس أكثر تزيينا، حيث يتوجها هرم صغير من الذهب المخرم³.

واهتمام العاصميات بالتاج، ثم بالصرمة، مرتبطا بدون شك بالتخلي عن العمرة المخروطية من جهة، وعدم امكانية حمل مثل هذه العناصر المعدنية، فوق شاشية مسطحة من جهة أخرى. كان هذا التاج، مستعملا عند العائلات الأريستقراطية في المغرب والأندلس منذ القدم، ولكن التطور الذي عرفته مدينة الجزائر في القرنين 10هـ/16م و11هـ/17م، غير من شكل الصرمة، بحيث أصبحت طويلة إلى حد ما، تكشف عن غنى الفيئة المهيمنة في تلك المرحلة، وبالتالي أصبح من الضروري إيجاد تقنية أخرى واستعمال الخيوط المسماة صرمة أدى إلى تغيير اسمها.

لاحظ الرحالة "شو Shaw"، أن الصرمة كانت تلبس من طرف أشخاص من درجة اجتماعية معينة، وأنها كانت مشكلة من عدة صفائح رقيقة ولينة من الذهب أو الفضة، منقوشة بأسلوب التخريم ومقطوعة على شكل الدنتيل⁴.

وبعد مرور نصف قرن من الزمن، أشار "فنتور دي برادي Venture de paradis" إلى الصفيحة الذهبية والفضة المصنوعة والمطرزة فوق قطعة من القماش، وتتكون هذه الصفيحة من جزئين رئيسيين، جزء لتغطية الرأس، وآخر يعصب الجبين، ويلتحم من الخلف، وكان هذه الزينة تثبت بعصابة من الكريب الملون أو عصابة تغطي الجبين. وكانت المرأة الميسورة الحال، تضع بدل عصابة الكريب، عصابة مرصعة بالجواهر والماس أو الزمرد⁵.

وفي بداية القرن التاسع عشر، أعطى السفير الأمريكي "شالر Sharler" وصفا دقيقا لها فقال: "كانت رؤوس الموريسكيات مغطاة بصفيحة من الذهب أو الفضة، عرضها بستة أصابع وترتبط فوق عقيصة (chignon) مع فتائل صغيرة، وتوضع أيضا فوق جلد الشعر، صفيحة أخرى بنفس عرض الصفيحة الأولى، وتركب من الأعلى إلى الأسفل، ويغطي الكل بستر شفاف تربط وراء الرأس، ويتدلى أواخرها المطرزة من الذهب حتى السيقان.

كانت العمرة التي تسمى صرمة، تغطي كل الرأس، بحيث لا يمكن رؤية سوى الشعر الذي يوجد قرب الصدغ، وتحرص النساء على أن يكون هذا الشعر باللون الأسود جدا وتعلق الباقي في شكل ذيل، تغطيه أشربة بألوان مختلفة مشكلة ضفيرة من نفس المعدن، مع ثلاث فتائل من الحرير⁶.

JOUIN (J), « Iconographie de la mariée citadine dans l'Islam Nord Africaine », extrait de la revue des études islamiques, Librairie Orientale, Paris, 1932, p. 20.

SHAW (T), Voyages de monsieur Shaw dans plusieurs provinces de la Barbarie et du Levant, T. I, 1732, p. 380.

VENTURE (De Paradis), Alger au XVIIIème siècle, 2ème edit, Bouslama, Tunis, 1980, p.

SHALER (W), Esquisse de l'état d'Alger, Paris, 1830, p. 25.-

لم يكن وصف الرحالة الأوروبيين لهذه الحلية الخاصة بغطاء الرأس خلال القرنين الثامن والتاسع عشر الميلاديين، كافيا للدلالة على تأخر ظهور الصرمة، وربما ظهرت بمقاييس أكبر في هذه المرحلة، بينما كان ارتفاعها أقل بأربع مرات، قرن من قبل، مما يدعو إلى الاستغراب والدهشة حقا، تناقض أقوال هؤلاء الأجانب فيما يتعلق بأصول الصرمة الشرقية وظهورها في القرن الثاني عشر هجري/ الثامن عشر ميلادي، يضعنا أمام إشكال واضح، وهو أن الدولة العثمانية عرفت انحطاطا في هذه الفترة، حال دون تأثير العاصمين بالشرق.

إن هذا الافتراض، يعود إلى الارتفاع (طول) الغير العادي للصرمة، لأنه منذ الحضارات القديمة الأولى، فإن حضارات السواحل الغربية ورثت مبدأ العمرة المرتفعة عن طريق مصر القديمة وحضارات الشرق الأوسط. ففي الألف الثانية قبل الميلاد، كانت سيدات سوريا تلبس التيجان الأسطوانية المرفوعة والمغطاة من الخلف بوشاح به تعاريج أو خطوط محيطية أو مطوقة، وهي إشارة خاصة بالنساء المتزوجات.⁷

من كريت إلى فينيقيا مروراً بقرطاجة وإيبيريا، كانت التيجان المثلثة منتشرة بكثرة عند سيدات هذه المدن. وبعد مرور ألف سنة، أعاد خلفاء بني أمية، إحياء هذه الموضة، إلا أن الفضل في ذلك، يرجع إلى المماليك بمصر ورثة الزي الفاطمي، في تعميم ونشر لبس هذه العمرات النسوية المسماة "طرطور" في الزي المدني. فكانت المصريات تغطي رؤوسهن بعمرات عالية تشبه كوب مغطى بقماش مميز وثمين.⁸ لاحظ "حسن الوزان"، أن سيدات القاهرة لهن عمرات باهظة الثمن، ضيقة وعالية بصفحة من 22 سم بشكل أنبوب.⁹

كان هذا النوع من لباس الرأس غير معروف في كل من المغرب والأندلس، حيث لاحظ حسن الوزان، أن نساء تونس تبدو برأس عملاق.¹⁰ بسبب العمامة التي تشكل مع شعورهن، حجما كبيرا، يشبه ما وجد عند الغرناطيات في القرن الخامس عشر أو الموريسكيات في القرن السادس عشر. لم تهمل هذه الحلية بمجيء العثمانيين للسواحل الجزائرية والتونسية، بينما كانت هذه الحلية في القرن السادس عشر، هي لباس كل نساء المدن في الفرس وفي المشرق، ولكنها بدأت تقل ابتداء من القرن السابع عشر، حيث بدت السيدات السوريات، بقبعتهن المرتفعة في نظر التركيات، متأخرات في الموضة إذ تعتبر هاته القبعات بالنسبة للتركيات، موضة قد ولّت، حيث أن السوريات مازلن يحتفظن في تلك المرحلة، بقبعة عالية من الكرتون المذهب، إلا أنها كانت تلبسها في الشارع فقط لشدة الوشاح. أما في المنازل، فكان شعرهن يصف بعمامة من القماش الأحمر، معمم بعدة طرق ومزين بجواهر وتزيينات متنوعة أو بقبعة طويلة من

⁷ - HENZY (L), Histoire du costume dans l'antiquité classique, Les belles lettres, Paris, 1935, p. 111.

⁸ - BELKAID (L), Algéroises, histoire d'un costume Méditerranéen, Paris, 1998.

⁹ - الوزان (حسن)، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، ط2، دار الغرب الإسلامي، 1983، ص. 541.

¹⁰ - نفسه، ص. 486.

المخمل أو الحرير الأحمر، تكون أكثر عرضا في العمق منها عند مدخل الرأس وكانت هذه القبة تشدّ بإبزيم¹¹.

تطورت "العمرات" في المدن المغربية بين القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين ومررت بمراحل تختلف عن تلك التي سجلت في حوض البحر المتوسط الشرقي، إذ لم تعرف التيجان المغطاة بلحاف في عواصم المغرب الإسلامي.

لم تكن اختلفت الصرمة العاصمية، عما كان شائعا بتركيا ولبنان، وفي القرن الثامن عشر لم يكن لباس الدروزيات يختلف عن لباس التركيات، باستثناء ما يضعن فوق رؤوسهن من سبيكة فضية، بشكل مخروط بارتفاع شبر* وترتبط من فوق بوشاح طويل يتدلى إلى نصف الجسم يعطيهم وقارا ولطافة¹².

كتب أحد الرحالة ما يلي: "رأيت عدة نساء مارونيات Maronites، يخرجن من الكنيسة ببيروت، تلتفتن الانتباه من خلال لباس مخروط ضيق بثمان أصابع في الطول تقريبا** مغطى بوشاح ويرتفع على الجبين في نفس اتجاه وبنفس الطريقة التي نمثل فيها قرن أحادي القرن. كانت تحدد الحالة أو الرتبة الاجتماعية للمرأة من خلال حجم القرن ومادة صنعه، فبعضه مصنوع من الفضة أو من الذهب¹³، سمي عموما طنطورة وكانت تلبس في البداية من طرف نساء المدن في لبنان، وكانت بحجم 10 سم فقط ثم تخلص عنها تدريجيا، بينما احتفظت بها نساء الجبال المجاورة للمدن ووصلت إلى نصف متر في الارتفاع.

وصعب تخيل في أي إطار استطاعت هذه اللبانيات الجليليات أن تؤثرن على العاصميات، علما أن المدن الساحلية اللبنانية هي التي كانت على صلة بمدينة الجزائر، بالإضافة إلى أن هذا التشابه الذي تشير إليه أوصاف الرحالة تفنّده بعض الصور التي تظهر النساء يلبسن الطنطور، الذي تكون قاعدته ضيقة ويمتد في شكل أنبوب مغلق غير موجه ومنقوش على السطح، بينما الصرمة فتكون مجوفة وموجهة، وتتكون من قطعتين وتكون مخرّمة، وبالتالي فهذا غير ممكن أن تصنع صرمة من القرون إذ كما يدل عليها اسمها فإن الخيوط المعدنية هي التي تسمح بصنعها، بالإضافة إلى أنها تسمح بشد الشعر لأنها توضع بجزئها فوق الرأس، الجزء لأول في الأمام والآخر في الخلف، وتجمع بعد أن تُلَف عقيصة chignon¹⁴، بينما الطنطورة توضع فقط في أقصى الرأس، إذن الصرمة والطنطورة هما عمرتين مختلفتين وربما وجود ارتفاع وارتفاعها الاثنتين بوشاح يتدلى، هو الذي أوجد فرضية اشتراكهما.

¹¹ - JOUIN (J), Op. Cit., p. 485.

* - مقياس روماني قديم بطول راحة اليد

¹² - Ibid., p. 486.

** - أقل من 50 سم.

¹³ - DOZY (R), Dictionnaire détaillé des noms de vêtement chez les arabes, Beyrouth, Liban, 1968, p. 265.

¹⁴ - MILLOT (S), « Costume du vieil Alger », extrait de l'Afrique du Nord illustrée, Alger, 1921, p. 21.

ارتفاع الصرمة والوشاح المرافق لها، عنصران شجعا أيضا وجود موازنة مع عمائر أخرى كما كان الحال في أوروبا العصور الوسطى، إذ يرى بعض الكتاب في الصرمة تشابه مع طرطور القرن الخامس عشر¹⁵. ويؤكد آخرون أنها تشبه تماما طرطور انجلترا في بلاط إليزابيث وتلبس بنفس الاقتدار في البلاط الملكي الإنجليزي¹⁶.

صحيح أن مدينة الجزائر عرفت توافد عدد كبير في نهاية القرن السادس عشر من سكان الشمال: انجلترا، هولنديين، وغيرهم، وهم الذين علموا الجزائريين الملاحة في المحيط الأطلسي واستعمال السفن الدائرية، وكانت مدينة الجزائر في هذه المرحلة غنية بشريا¹⁷. كما أن كتاب هذه المرحلة، قد ذكروا عن وجود انجليزيات بين العاصميات من أصل أوروبي ولكن بنسبة قليلة.

في الحقيقة أن العلاقة بين الصرمة والطرطور، ترجعنا إلى فرضية أن أصلها من الشرق الأوسط، وأن هذه التأثيرات جاءت عن طريق رحلة ملك قبرص إلى أوروبا، بالإضافة إلى احتلال الإسكندرية، كل هذا ساهم في اختراع بعض ألبيسة الرأس الغربية الشكل كانت تلبس من طرف السوريات¹⁸. كما أن شكل الطرطور يكون مخروطي ومغلق، مصنوع من الكرتون مغطى بقماش ويحمل زخارف، ويبقى ارتفاعه والوشاح الذي يرافقه هما فقط ما يربطه بالصرمة.

هناك عنصر بشري آخر ساهم في نشر هذا النوع من اللباس، وهو عنصر اليهوديات، فبالإضافة إلى الجالية اليهودية المحلية، أو الأندلسية هناك نساء يهوديات ذات أصل أوروبي: من صقلية، و نابولي، وغيرهما... من فرنسا وانجلترا. هذه النساء المهاجرات بقيت الصرمة حاضرة في القرن الثالث عشر هجري/التاسع عشر ميلادي في لباس السيدات اليهوديات بمدينة الجزائر¹⁹، وقد لاحظ "دولاكرو De lacroix" هذا اللباس على إحدى هذه النساء في 1832م. سنوات من بعد لاحظ "إستري Estry" إثر زيارته لمدينة الجزائر، أن الصرمة التي كانت تلبسها اليهوديات يشبه إلى حد ما المخروط المقطوع، مزين بوشاح شفاف مطروز²⁰. ومن خلال بعض الصور التي تعود إلى تلك الفترة، فإن استعمال الوشاح من الشف (gaze) الموضوع على لباس الرأس، هو الذي يميز لباس اليهوديات بمدينة الجزائر، وهذا ما يؤكد وجود نقطة شراكة بين الصرمة والطرطور من خلال دخول الأوروبيات اليهوديات إلى مدينة الجزائر. والحاصل أن تاريخ اختفاء هذا اللباس من مدينة الجزائر مهم جدا ويقول مارسى Marçais حول الصرمة: "أشاروا لي أن عجوز أو اثنتين، كانتا تلبسانها إلى غاية 1890م، وبالتالي فإن عادة لبس

¹⁵ - Ibid.

¹⁶ - سبنسر وليم، الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب وتعليق عبد القادر زيادية، 1980، ص. 74.

¹⁷ - BELKAID (L), Op. Cit., p. 139.

¹⁸ - BOUCHER (F), Histoire du costume en occident de l'antiquité à nos jours, Paris, 1983, p. 200.

¹⁹ - كان عدد السكان بمدينة الجزائر في 1830، ثلاثين ألف نسمة وحوالي ستة آلاف منهم كانوا من اليهود.

²⁰ - ESTRY (S), Histoire d'Alger, Tours, 1843, p. 29.

الصرمة قد توقفت منذ عشرين سنة قد خلت²¹. ومما سبق فإن لباس الصرمة لم يعد متداولاً منذ 1870م، وهذا التاريخ يصادف اصدار مرسوم «cremieux»، الذي يعطي لليهود الجزائريين حق المواطنة الفرنسية أو الذي اتبعته مجموعة من التحولات في الحياة اليومية للسكان اليهود، بدءاً بتقيدهم بالعادات الفرنسية خاصة في اللباس. وقد يكون اختفاء الصرمة في هذا الاتجاه وبالتالي تقدم لنا حجة إضافية للدور الذي لعبته اليهوديات بمدينة الجزائر في تاريخ هذه الحلية. ويجب التذكير أن 1870م، يصادف أيضاً تاريخ تكثيف الاستعمار الفرنسي بالجزائر، وبالتالي تدهور الاقتصاد الجزائري وفقر الأسرات الجزائرية التي لم تعد النساء بإمكانها لبس الصرمة الباهضة الثمن. لم يكن هذا السبب الوحيد في اختفاء الصرمة، فهناك الناحية الفنية والعملية التي تتطلبها هذه الحلية من وقت واتقان كبير في صناعتها.

وبهذا عرفت تدهور سريع ولم يعد ضرورياً تحديد الطبقات، بسبب رحيل وجهاء المدينة، والتغيرات الاقتصادية والاجتماعية الكبيرة التي ميزها القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر ميلادي.

وبناء على ما سبق، فإن امتداد التاج الذي أصبح صرمة كان إذن في نهاية القرن العاشر هجري/السادس عشر ميلادي في مرحلة كانت فيها مدينة الجزائر مزدهرة، فقد كانت تهدف إلى التفريق بين سيدات الطبقة الراقية من خلال مقاساتها.

ونشير بهذا الصدد، إلى أن النماذج المتوفرة لدينا، (مجموعة المتاحف الجزائرية) تمثل ثلاثة نماذج على صورة الشكل القرميدي، متوسطة الطول (الارتفاع)، بها طرفان بارزان لتسهيل تثبيتها على الرأس، زخارفها مخرمة وقوامها عناصر نباتية من تفرعات حلزونية، وأوراق، وأزهار متنوعة.

²¹ - MARÇAIS (G), Le costume musulman d'Alger, Paris, 1930, p. 118.



صورة 02: قلنسوتان من الفضة (صرمه)

محفوظة بالمتحف الوطني البارود - الجزائر -

2- التاج:

التاج في اللغة، هو الإكليل غير أن التاج، مدلوله أوسع من الإكليل، وكما يقول الفيروز أبادي فيه، أنه شبه عصابة مكلل بالجوهر²². وهو حلية مستديرة لزينة الرأس. واستخدم التاج رمز لرتبة الملك وعلامة لسلطانهم وهو أيضا علامة للعبادة والفرح والمجد. وهو تقليد قديم في الشرق والغرب عرفه ملوك مصر واليونان والرومان وقد تنوعت أشكاله.

وقد شاع استعماله عند الأمم القديمة، فكان يستعمل قبل الحرب وبعد الظفر وكان التاج في الأصل مؤلف من غصنين من الزيتون ملتقين أحدهما على الآخر، فال الأمر إلى أن أصبح أو صار من الذهب، والعرب تسمى العمامات التاج. وفي الحديث العمامات تيجان العرب، والأكاليل تيجان ملوك العجم²³.

والتاج لقب فارسي معرب، يسمى "تك" وقد عرف العرب التيجان لأول مرة قبل الإسلام، وكان التاج من خصائص اليمن ولعله من بقايا العلاقات القديمة التي كانت بين اليمن والحبشة، ولم يعرف المسلمون التاج الملكي كما عرف عند الملوك المسيحيين²⁴، والتاج الذي نريد التركيز عليه هنا، هو تاج المرأة بمفهومه الجمالي وليس السياسي.

لقد عرفت المرأة العربية استعمال التاج كحلية رأس منذ العصر الأموي، ومن أقدم الإشارات التاريخية إلى استعمال التيجان في العصر العباسي، ما ذكر الشافعي من أن الرشيد جهز زوجته زبيدة بالإضافة إلى الجوهر والحلي، بعدد من التيجان²⁵.

²² - الفيروز أبادي (مجد الدين بن يعقوب)، القاموس المحيط، ط2، مطبعة البابي العالي وأولاده، ج. 1، 1371هـ، ص. 47.

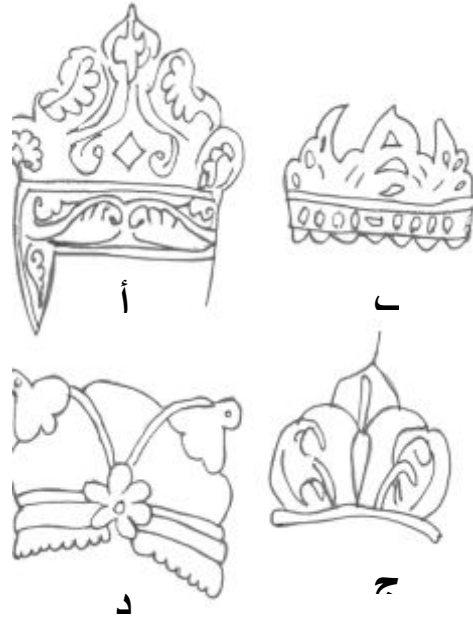
²³ - عبد الجبار (محمود)، "الملابس والحلي في شعر المتنبي"، مجلة التراث الشعبي، العدد. 7، 1976، ص. 54.

²⁴ - زكي (عبد الرحمن)، الحلي في التاريخ والفن، دار القلم، الدار المصرية للتأليف والترجم، مصر، 1965، ص. 39.

²⁵ - العلمي (زكية عمر)، نقلا عن الشافعي، التزيق والحلي عند المرأة في العصر العباسي، سلسلة الكتب الحديثة، العراق، 1976، ص. 114.

كما تدل الإشارات التاريخية إلى أن التاج قد استعمل كحلية نسائية طيلة العصر العباسي، فمن تلك الإشارات ما ذكر عن جارية عرضت أمام الخليفة المأمون** كان على رأسها تاج من ذهب²⁶. وذكر أيضاً، أن الخليفة القائم بأمر الله*** أرسل إلى خديجة أرسلان حوالي 400هـ/1009م تاجاً مرصعاً بالجوهر²⁷.

ويبدو أن التاج أصبح أكثر وضوحاً في الفنون الإسلامية عند المرأة منذ مطلع القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي والذي تكرر كثيراً وبأشكال وصور مختلفة في منمنمات المدرسة العربية. وإذا ما انتقلنا إلى المخلفات الفنية التي تعود إلى الفترة الإسلامية، نجد أن أقدم التيجان التي وصلتنا والتي تزين رؤوس الأشكال الآدمية ما نلاحظه في المنحوتات الحجرية المكتشفة في مدينة المهديّة والمحفوظة في المتحف الوطني بتونس وهي منسوبة إلى القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي²⁸.



شكل 01: أنواع التيجان.

** - عبد الله المأمون بن هارون الرشيد، ولد عام 170هـ حكم 198هـ - 218هـ/ 813 م - 833م.

²⁶ - السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن)، تحفة الجالس ونزهة المجالس، مطبعة السعادة، طبعة أولى، مصر، 1326هـ/ 1908، ص. 114.

*** - هو أبو جعفر عبد الله القائم بأمر الله، من خلفاء الدولة العباسية ولي الخلافة بعد أبيه و كانت بيعته في ذي الحجة سنة 422هـ.

²⁷ - جواد مصطفى، سيدات البلاط العباسي، دار الكشاف للنشر والطباعة، بيروت، 1950، ص. 103.

²⁸ - زكي (حسن محمد)، أطلس الفنون الزخرفية و التصاوير الإسلامية، مطبعة جامعة القاهرة، 1956، ص. 14.

لقد تميزت اغلب التيجان النسائية بأنها تغطي الرأس أو الجزء العلوي منه بشكل تام، كما تميزت ببروزات جانبية نسبه مدببة وبروز وسطي مشابه، وفي كثير من الأحيان نجد أن البروز الوسطي أعلى قليلا من البروزين الجانبيين. فبينما نجد أن بعضها بسيطة في مظهرها، نجد أن البعض الآخر منها على جانب كبير من التعقيد، كما أن الكثير من رسوم تلك التيجان مزينة بما يرمز إلى الأحجار الكريمة من لآلئ وغيرها.

إن تلك الاختلافات من بروزات مختلفة وتزينها بالأحجار الكريمة، تجعل التيجان تختلف اختلافا كبيرا عن القلائس التي استعملت على نطاق واسع منذ العصر الجاهلي وطيلة الفترات الإسلامية. ولا نعلم إن كانت التيجان النسائية قد مرت بمراحل تطور في العصور الإسلامية المبكرة وكيفما كان الحال، فإننا نرى من الأفضل أن نتناولها مبتدئين بالتيجان الأكثر بساطة، ثم التدرج بها إلى المعقدة في الزخرفة والتكوين بغض النظر عن التعاقب الزمني.

فمن التيجان التي تميزت ببساطة المظهر، هذه البساطة التي تجعلها قريبة بعض الشيء من القلائس، (شكل 01أ) ما يزين رأس امرأة ذات جسم طير على إناء من الخزف ذي البريق المعدني من صناعة الري منسوب إلى القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر ميلادي²⁹. يتميز هذا التاج ببروزين جانبيين مدبيين تقريبا، إضافة إلى بروز في وسط التاج من الخارج، زخارف شبه كتابية (شكل 01ب).

وفي حوالي القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، عرفت التيجان تطور، حيث أصبح جانبي التاج قد تحولوا إلى نصفي ورقتين كأسيتين بينما نجد تدببا ظاهرا في القسم الوسطي منه (شكل 03ج).

ومن التيجان المعقدة تاج في غاية التعقيد والكبر يزين رأس سيدة في منمنمة من منمنمات مخطوط "حديث بياض ورياض" والتي تنسب إلى إسبانيا أو المغرب من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي³⁰ فنجد في هذا التاج الضخم مختلف ضروب العناصر والتفريعات النباتية، كذلك بعض العناصر المجنحة الصغيرة (شكل 04د).

أما في الجزائر فمن الغريب أننا لا نجد أثرا لهذه الحلية في متاحفنا سواء في الفترات القديمة أو في العصور الإسلامية.

أما في العهد العثماني، فقد استعملت المرأة هذا النوع من الحلي وكان خاص إلا بطبقة معينة من المجتمع، لذلك فلم يسعفنا الحظ أن نجد في متاحفنا أحد هذه الحلي، ولكنني استطعت أن أتوصل إلى هذه الحلية من خلال تحرياتي الميدانية عبر العائلات العاصمية. هو تاج يعود إلى القرن الثالث عشر هجري/ التاسع عشر ميلادي، يتكون من صفيحة نصف دائرية عبارة عن أنصاف مراوح نخيلية أكبرها في

²⁹ - العلمي (زكية عمر)، المرجع السابق، ص. 116.

³⁰ - نفسه.

المركز، رأسها بشكل وريقة سهمية مرصعة بشذرات الماس غالبا- الناتج عن عملية قطع الماسات الكبيرة-وتكون هذه الشذرات ذات أحجام وأشكال مختلفة.



صورة 03: تاج لعائلة عاصمية.

3- الشاشية:

هي أيضا من حلي الرأس، تكون مخروطة الشكل بتلمسان أو على شكل غطاء الرأس الكروي بالجزائر وتسمى "الكوفية" بقسنطينة وهي نوع من الطاقيات، مزينة باشربة ومطرزة ببروق اللؤلؤ، أما المخروطية فتكون من الفضة. تتألف غالبا من ستة مثلثات متطاوله تجمع إلى بعضها بلحام أجزائها، فيكون بمثابة الإطار بالمثلثات، زخارفها مخرمة أو محزوزة أو مضافة، قوامها زخارف نباتية أو هندسية.



صورة 04: شاشية من الفضة المرصعة بالأحجار الكريمة

محفوظة بالمتحف الوطني للآثار . الجزائر.

كانت الفتيات العازبات تضعن شاشية مثبتة تحت الذقن بواسطة خيط رفيع تسمى "قنيية" وغالبا ما تزينها بقطع نقدية ذهبية بشكل مستدير يمثل المستوى الاجتماعي لعائلة الفتاة ومدى غناها.



صورة 05: شاشية.

تلبس الشاشية التلمسانية في جانب الرأس من الخلف، ترافقها دائما قطع أخرى من الحلي، كما يتصل بها منديل حريري، بينما شاشية مدينة الجزائر ذات الشكل الكروي المستدير، فتوضع على رأس تستعمل إلى جانبها هي الأخرى حلي متنوعة، غالبا ما تكون زخارفها مخزومة ومرصعة بمختلف الأحجار الكريمة، قوامها عناصر نباتية من غصون وأوراق وأزهار أو أشكال هندسية.

تعتبر كل من الصرمة والشاشية، نوعان من الحلي بطل استعمالهما ما عدا بمدينة تلمسان، حيث ما تزال النسوة يستعملن الشاشية المخروطية الشكل، لكنها ليست من معدن وإنما من الخمل المطرز بخيوط الذهب والفضة.

4- العصابة:

نوع من أنواع حلي الرأس وهي تاج أو إكليل يحمل أيضا اسم الجبين بقسنطينة وبسكرة، ويعرف بالعرصة في الأغواط، وهي من أقدم ما عرف من حلي في الجزائر.

عند التطرق إلى الحلي في المشرق نجد لها ذكرا، فقد كانت مستعملة كثيرا عندهم خاصة في الفترة العباسية. فقد جاء ذلك على لسان الأصفهاني في سياق كلامه عن عليّة بنت المهدي والتي كان في جبينها عيب وهو في سعته الغير الطبيعية، فكانت إن اتخذت العصائب المكلفة بالجواهر لتستر بعض جبينها، فتبعثها الكثير من النساء فيما ابتدعت حتى انتشرت تلك العصائب انتشارا واسعا³¹. وبالرغم مما أورده الأصفهاني، فإن العصائب المكلفة بالجواهر، لم تكن حديثة الاكتشاف، بل عرفت منذ العصور القديمة وما بعدها إلى العصر الساساني.

فقد تنوعت العصائب في هذا العصر ومن الأمثلة على ذلك كثرة، إذ نجد على رؤوس بعض النساء على التحف المعدنية التي وصلت من العصر الساساني والمحفوفة بالمتاحف بها أشرطة مكلفة بالأحجار الكريمة، ويتدلى من كل جانب منها شريط آخر تزيينه أنواع الأحجار³².

ونماذج العصب الساسانية الأخرى، هي عبارة عن شرائط منفردة تنتهي في مقدمة الرأس بحنية زخرفية كبيرة يتدلى منها على الجانبين شريط يتصل إلى منتصف الرقبة³³.

31 - الأصفهاني (أبو الفرج علي ابن الحسين)، الأغاني، الطبعة الأولى، المطبعة الخديوية، ج 9، 1223هـ، ص. 79.

32 - GHIRSHMAN (R), Iran-Parthian and Sassanians, France, 1962, p. 253.

عرفت العصائب المكلفة بالجواهر، عند البيزنطيين أيضا والتي هي على الأغلب أكثر بساطة من العصائب الساسانية، وهي ممثلة في العديد من مصورات المخطوطات والمنسوجات البيزنطية وغيرها. وإن كانت هذه العصائب بسيطة، فإنها تنتهي في أكثر الأحيان كما تنتهي العصائب الساسانية بحلية في مقدمة الرأس، أو قد تنتهي بأكثر من حلية واحدة أكثرها مطعمة بالأحجار الكريمة كالياقوت والزمرد خاصة لتلك التي تعود إلى القرن الخامس هجري/ الحادي عشر ميلادي³⁴، ثم استمر استعمالها في العصور الإسلامية.

ومن الغريب أن لا نجد إشارة إلى العصائب النسائية سواء المكلفة بالجواهر منها أو البسيطة في العصور الإسلامية التي تسبق العصر العباسي، هذا العصر الذي كثرت فيه الإشارات التاريخية إلى زينة العصائب. من ذلك مثلا أن الكثير من الجواني في ذلك العصر يحلن عصائبهن بأبيات من الشعر أو عبارات غزل رقيقة باللآلئ وغيرها من الأحجار الكريمة، من ذلك ما كتبتة عنان جارية الناطقي على عصابتها باللؤلؤ: "إذا لم تستحي فاصنع ما شئت" كما كتبت فرجة جارية علي بن الجهم على عصابتها "من صبر ظفر" كما كتبت جارية للمتوكل* على عصابتها.

إذا خفنا من الرقباء يوما تكلمت العيون عن القلوب.

وفي غمز الحواجب مغنيات كحاجات المحب إلى الحبيب³⁵.

وإذا انقلنا من النصوص التاريخية إلى المخلفات الأثرية الإسلامية، نجد أن الرسوم الجدارية وكذلك المنمنمات العربية القديمة والتحف المعدنية وغيرها حافلة بالعديد من الرسوم النسائية المتميزة بالعصائب³⁶.

وطبيعي أن لا نجد نماذج لعصائب تعود إلى العصر العباسي الأول، إذ كما سبق وبيننا أن مخلفات هذا العصر قليلة سواء ما يتعلق بها بالآثار المحفوظة بالمتاحف أو في الصور الجدارية أو غيرها.

لا نجد شيئا من العصائب في المخلفات العراقية للسنوات التي أعقبت عودة الخلفاء العباسيين إلى بغداد. ومن نماذج العصائب التي وصلتنا من مصر من مخلفات العصر الفاطمي، ما نلاحظه في رسم امرأة في صحن من الخزف ذي البريق المعدني من صناعة القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي³⁷.

³³ - GHIRSHMAN (R), « Argenterie d'un seigneur Sassanide », In ars orientalis, Vol. II, 1957, pp. 06-11.

³⁴ - RICE (T), The art of byzantium, New York, 1959, p. 45.

* - أبو الفضل جعفر المتوكل على الله بن المعتصم بن الرشيد بن المهدي (205-247هـ)، بعد عهده هو بداية عصر ضعف الدولة العباسية وانحلالها، و الذي انتهى بسقوطها على أيدي التتار سنة (656هـ/1258م).

³⁵ - لغزولي (علاء الدين علي بن عبد الله البهائي)، مطالع البدر في منازل السرور، مطبعة إدارة الوطن، الطبعة الأولى، ج1، 1299هـ، ص.

278.

³⁶ - العلمي (زكية عمر)، المرجع السابق، ص. 124.

³⁷ - نفسه، ص. 126.

أما في المغرب الإسلامي عامة والجزائر خاصة، لم نجد أي نموذج أو معلومات عنها في المصادر العربية. في حين كانت العصابة في العهد العثماني، تصنع من الفضة لكنها نادرا ما تكون من الذهب، وقد أكد أحد الصاغة القدماء على أن هذه الحلية، لم تصنع إطلاقا من الذهب³⁸. يتكون بدنها الفضي من سبعة قطع مستطيلة مدببة في قمتها، أكبرها القطعة المركزية، تصل القطع ببعضها رزّات تغلق بوصلات(شكات)رأسها بشكل وريقة سهمية مرصعة بشذرات الماس غالبا - الناتج عن عملية قطع الماسات الكبيرة-وتكون هذه الشذرات ذات أحجام وأشكال مختلفة، تجعل حواشي العصابة من الذهب أو تذهب فقط.



صورة 06: عصابة.

محفوظة بالمتحف الوطني للآثار -الجزائر -

الزخارف فيها مخرمة قوامها العناصر النباتية من أغصان وأوراق، ونجد أحيانا الهلال العثماني يتوج ذروتها.



صورة 07: عصابة

محفوظة بالمتحف الوطني للآثار -الجزائر -

ترصع الحلية جميعها بالماس ذو أحجام وأشكال مختلفة، يستعمل أحيانا بشكله الخام ويصقل سطحه أحيانا أخرى، غير أن الأحجار في شكلها الخام أقدر على تعليق الضوء وتحليله إلى ألوان جميلة. يتدلى من العصابة دلايات مرصعة بها فصوص أسفلها أكبرها.

³⁸ - ROUSSEAU (G), L'art décoratif musulman , Paris, 1924, p. 291.

توضع العصابة على الجبين، وتشد وراء الرأس بشريط متصل بطرفيها ليتم تثبيتها، ترفقها دائما حلي أخرى، فتلبس مع الشاشية وخيط الروح في الجزائر، أو خيط الحوت أو خيط الشعير بتلمسان وغيرها من المدن الأخرى.

وقد نجد في تلمسان نوعا آخر من العصابات انتشر استعماله، مكون من قطع السلطاني تجمع هذه القطع إلى بعضها بحلقات وتكون في صفين أو أكثر تتدلى منها أنواط ودلايات مختلفة الأشكال، كما استعملت بعض المناطق، العصابة المزدوجة وهي مركبة من عصابتين بنفس الشكل الأول.

للعصابة أسطورة في مدينة الجزائر، فعند قدوم العثمانيون الذين كان يتراأسهم باب عروج. فقام سكان منطقة بوزريعة بتقديم الكسكس للعثمانيين القادمين وهذا بالجامع الكبير.

كانت إحدى النساء قد سمعت أن هناك من يحضر لهم مكيدة، فقامت بتحذير زوجها الذي كان تركيا والذي بدوره خبر بابة عروج.

لما وضع الكسكس أمام الجنود العثمانيين للبدء بالأكل، فوجأ الحاضرون لما رأوا أن عشرون منهم جلسوا للأكل، بينما بقي الآخرون يحرسونهم، استغرب سكان بوزريعة لهذا، فردوا عليهم بانها طريقتهم في أكل الكسكس. بعدها وفجأة أغلقت باب المسجد، ثم بدأ الجنود بتفتيش كل من كان هناك. وتبين لهم أن كل واحد من الحاضرين، يحمل سلاح حتى يتمكنوا من قتل الأتراك أثناء الأكل.

قتل الجنود هؤلاء المحرضين بأمر من عروج الذي كرم المرأة التي خبرتهم بالمكيدة، فوضع على جبينها صفيحة من الفضة. وهنا ظهرت العصابة التي بدأت تنتشر في أوساط المجتمع الجزائري، لأن النساء منذ ذلك الوقت بدأن يلبسن العصابة التي كانت تذكرنا بالطنطور* الذي يعود إلى القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، وبالتالي تعتبر العصابة من أقدم الحلي التي عرفتها المرأة الجزائرية في العهد العثماني³⁹. والعصابة من الحلي التي ما يزال استعمالها سائدا إلى اليوم.

5- خيط الروح:

نوع آخر من زينة الرأس، للأسف لم أتمكن من التوصل إلى معرفة أسباب هذه التسمية سواء في المصادر أو عند التحريات التي قمت بها بين النساء العاصميات.

يتألف من وريقات تجمع بينها حلقات. يصنع من الذهب أو الفضة ويرصع بالألماس أو يكون تجميع لقطع من الأحجار والجواهر (ياقوت، زمرد...) لا يزال هذا النوع من الحلي سائدا للاستعمال، يلبس على جانب من الجبين مع العصابة وحلي أخرى.

* - لباس نسائي للرأس

39 - BUGEJA (M), « Les bijoux algériens », In Bulletin de la Société de Géographie d'Alger, 1931, p. 215.

يعود أصل هذه الحلية إلى الفينيقيين⁴⁰، وقد عرف في كل المغرب العربي تحت أسماء مختلفة، وفي الشرق الأوسط، فقد لبسته المرأة في المدينة وفي الأرياف على السواء. فكان يعرف بالحليلو أو الشركة ذات النواية في الأطلس الصحراوي، شعيرية في سفاقس بتونس، والكردال بمصر.

لدينا ثلاثة نماذج لهذه الحلية في مجموعة متحف الفنون الإسلامية. تتكون كل النماذج من قطعة مركزية، هي عبارة عن زهرة أو أشكال متنوعة، قوامها وريقات نباتية، يأتي على جانبيها أزهار ووريقات، بشكل تناضري. وهي أيضا مرصعة بالماس وهذا النوع من الحلي متداول في كثير من المناطق يستبدل أحيانا في مدينة تلمسان بخيط الحوت أو خيط الشعير في استعماله.



صورة 08: خيط الروح.

محفوظ بالمتحف الوطني للآثار - الجزائر -



صورة 09: خيط الوح.

محفوظ بالمتحف الوطني للآثار - الجزائر -

6 - الوردية:

تعرف أيضا باسم الرعاشة بسبب اهتزازها عند الحركة، تستعمل في تزيين الرأس ترافق دائما حلي أخرى على جانب الرأس.

⁴⁰ - EUDEL (P), L'orfèvrerie algérienne et tunisienne, Alger, 1902, p. 229.